

البيانات

الاشعور

لكي ندرك ما هو الاشعور يجب أن نعرف ما هو الشعور ، فأنا أشعر بالحر أو البرد أو بثقل الملابس على جسمي ، أو بصوت يناديني ، أو أشعر بالألم أو بالجوع أو بالراحة أو بالسرور . . الخ ومعنى ذلك أن حالة خاصة قد قامت بالنفس أسميناها الشعور بالحر أو البرد أو الألم أو الجوع . غير أن الشعور ذاته ، من خواص النفس بصرف النظر عما تشعر به . فالنفس لا تستطيع إلا أن تشعر ، وهي تشعر في كل لحظة من لحظات الحياة ، حتى إن أحدهم قد شبه الشعور بتيار الماء الذي لا ينقطع ، يتغير ماؤه من لحظة لأخرى ، وقد تتغير سرعته أو اتساعه أو عمقه ولكنه لا ينقطع بتاتا ، والانسان يشعر حتى أثناء نومه بدليل أن النداء أو الطرق يوقظه ، وغاية ما في الأمر أن هذا الشعور ضئيل حتى ليحتاج إلى المنبه القوي لكي يصل إلى التأثير الواضح :

وقد اهتم علم النفس اهتماما عظيما بدراسة الشعور ، بل إنه اقتصر عليه إلى عهد قريب ، ولعل هذا لا يتضح لنا بأكثر من أن نذكر أن علم النفس كان يعرف بأنه "علم دراسة الشعور" لأن كل ما يحويه النفس يحويه الشعور ، فكل ما ندرك أو نتذكر إنما نشعر به ، نشعر بكل ما يتناوبنا من خوف أو ألم أو فرح أو سعادة أو ارتياح ، نشعر بأننا نفكر أو بأننا نريد أو بأننا نحب أو بأننا نكره . . فإذا بقي من النفس بعد الشعور ؟ لا شيء ، إذن فالشعور هو الخاصة الأساسية من خواص النفس ، وهو خاصة ملازمة لها طول الوقت ، فلو درسنا أحوال الشعور ومظاهره فقد درسنا النفس . فكل وظيفة تقوم بالشعور إنما تقوم بالنفس وبالعكس كل ما يقوم بالنفس يقوم أيضا بالشعور .

وقد عكف علم النفس على دراسة الشعور مدة طويلة وفُسر جميع الظواهر النفسية على أساس الشعور حتى أواخر القرن الماضي حينما بدأ الباحثون

في الطب النفسى يواجهون مظاهر وحالات توحى بأن في النفس طبقات عميقة لا يصل الشعور إلى عمقها، وإنما هي خارج أعماقه، وكانت ظاهرة التنويم المغناطيسى من أولى الظواهر التي لفتت النظر إلى ذلك، وتبعته ظواهر أخرى كالأحلام وفلتات اللسان وأعراض الاضطراب والجنون وغيرها .

وقد كان علماء النفس ينظرون إلى نفس الإنسان كما ينظر الرائي إلى ماء النهر فيظن أن كل ما هنالك من ماء هو ما يحويه المجرى الذي يستطيع أن يلمسه ويقتر طولُه واتساعه وعمقه بأيسر الطرق . ولكن فات هذا المشاهد السطحي أن ماء النهر إنما يتسلل في شقوق الأرض ومسارها فيملاً بفواتها ، وما بين حباتها ، ويشربها ويشبعها، ولا يمتلئ المجرى حتى تكتمنى هذه المسارب والشقوق وحتى تتشبع التربة في كل نواحيها . ولو قدرنا كمية الماء جميعاً لوجدنا أن ما يملأ المجرى ليس إلا جزءاً منها، وكثيراً ما يكون القدر الذي "يضيع" في باطن الأرض أكبر من القدر الذي يظهر على سطحها ، وإن هنالك أنهاراً تختفى في باطن الأرض اختفاءً قبل أن تظهر على السطح مرة أخرى في مكان آخر ، لأن الباطن قد ابتلع الماء كله في المواضع الأولى (١)

فكما أن ماء النهر لا يظهر في المجرى فقط فكذلك محتويات النفس لا تظهر كلها في تيار الشعور ، وكما أن ماء النهر إذ يتسرب إلى الباطن فإنه يظهر في مواضع بعيدة عنه على شكل عيون أو آبار أو نافورات .. الخ مما لا يبدو له صلة مباشرة بالنهر، فكذلك تظهر المحتويات النفسية "الغائبة" في الأحلام وفلتات اللسان وظواهر العصاب والجنون ... الخ وكما كان من العسير تحديد العلاقة بين ماء الآبار والينابيع وبين ماء النهر قبل دراسة ظاهرة التسرب ، وعمل "المجتمعات" المختلفة في مواضع عديدة ، كذلك كان من غير الممكن ربط هذه الظواهر النفسية الشاذة بالتيار النفسى العام قبل دراسة العوامل التي تكوّن هذه الطبقة "التحتية" العميقة من النفس وهي اللاشعور .

ولو سمحنا لأنفسنا أن نستطرد قليلاً في هذا التشبيه لوجدنا أننا نقع فيه على أكثر من مقابلة . فمن المعروف أن مدى تسرب الماء إلى الباطن في منطقة

(١) أنظر كتاب الجيولوجيا للدكتور حسن صادق ص ٩٦

ما من النهر ، يؤثر على كمية الماء ، على اتساعه وعمقه ، وعلى سرعته ، وبعبارة أخرى فإن الجزء الظاهر من تيار الماء تتوقف خواصه وصفاته على الجزء المتسرب ، فضلا عن أن طبعا الجزء المتسرب آثارا كبيرة في التشرة الأرضية ، فمن مواد يذهبها إلى صخور يفتتها ، إلى نافورات يفجرها . . الخ ، وكذلك نجد أن ما يتصدر من الشعور إلى أعماق النفس ويضيق لأشعور يا يؤثر في سلوك الإنسان الظاهر أثرا كبيرا .

وقد جعل التحليل النفسي من "الأشعور" أساسا لتفسير الظواهر النفسية . وقد يتبادر إلى الذهن أن الأشعور يتكون من كل ما هو "منسي" من عقل الإنسان ، والواقع غير ذلك فهناك نوعان من النسيان : الأول نسيان سطحي ينصب على أشياء يمكن استعادتها بسهولة ، كالأبار التي تخفر بجوار مجرى النهر مباشرة ، فتحصل على الماء منها بلا كبير عناء ، وهناك نسيان عميق لا تصل إلى عمقه إلا باستخدام وسائل خاصة وببذل مجهود شاق .

ولكن ندرك العلاقة بين هذين النوعين من النسيان وبينهما وبين الشعور ، نأخذ لحظة معينة في حياة أى شخص ، ففى هذه اللحظة يكون الشخص "شاعرا" بأفكار ورغبات وإحساسات . . الخ شعورا عقليا . ولكن هذه لا تمثل كل محتويات (١) عقله ، فهناك محتويات أخرى ليست في شعوره ، ولكنه يستطيع أن يستدعيها إلى الشعور بمجهود قابل أو كثير ، مثال ذلك أسماء أصدقائه وأقاربه وأرقام "تليفوناتهم" وما صرفه من النقود بالأمس وما يحفظه من شعر أو ثر وغير ذلك من حوادث الحياة اليومية ، وهذه المحتويات التي يستطيع الشخص أن يبرزها إلى شعوره أو "يدكرها" بمجهود عادى قلى أو كثير ، تكون طبقة من العقل تحت الشعور مباشرة ومنها يستمد الشعور محتوياته العادية . وتبادل المحتويات والأفكار والرغبات . . الخ بين الشعور و"تحت الشعور" (٢) سهل هين ، وهو من لوازم حياتنا اليومية ، فعندما أكتب خطابا يكون موضوع الخطاب في شعورى

Contents (١)

Pre-Conscious (٢)

بينما أسرار الحاجيات تحت الشعور ، وبالعكس عندما أبدأ في حساب مصروفى اليومى ينحدر موضوع الخطاب إلى ما تحت الشعور بينما تبرز أسرار الحاجيات إلى الشعور .

ولكن ليس هذا كل شيء إذ أن هناك علاوة على الطبقتين السالفتين من طبقات العقل طبقة "الاشعور" وهي طبقة عميقة غاية العمق ، مخفية عن الشخص غاية الخفاء ، وهي زاخرة بالمحتويات العقلية من أفكار ورغبات وجميعها تتدافع وتلح لى تبرز إلى الشعور ولكنها لا تستطيع ذلك إلا إذا دخل عليها تغيير أساسى ، كما أن صاحبها لا يستطيع أن يذكرها و يبرزها إلى شعوره بأى مجهود "عادى" يبذله ، وهي بالرغم من هذا كله ذات أثر كبير جدا في توجيه سلوكه وتكييف شخصيته ، فهذه الرغبات المخفية تستطيع من مكنها أن تؤثر في تصرفاته آثارا ربما لا تستطيعها رغباته الواضحة التى يشعر بها ويعرفها . أما كيف تكوّنت هذه الطبقة العميقة من العقل وكيف خفيت على صاحبها وكيف تؤثر في سلوكه وشخصيته كل هذا الأثر ، فهو ما سنتكلم عنه فيما يلى من الفصول .

وقد ولدت فكرة التحليل النفسى ونشأت في محيط العلاج الطبى النفسى ، وقد اشتهر في هذا العلاج "شاركوه" (١) في أواخر القرن الماضى في فرنسا ، وتلميذه "جانيه" (٢) وقد توصل الاثنان في علاجهما لبعض حالات الهستيريا إلى أن المرض يرجع في أصله إلى "ذكريات" وحوادث قديمة ، وأن أعراض المرض تشتق صورتها من هذه الحوادث ولذلك فإنها تتخذ صورا خاصة ، وأن المعالج يمكنه بمراقبة هذه الصور أن يكشف "المعنى" النفسى الذى يكمن وراءها ، والذى هو ذو علاقة وثيقة بالحوادث النفسية السابق ذكرها . وبعبارة أخرى فإنه يستطيع أن يترجم الأعراض الحاضرة في ضوء الحوادث الماضية ، فمثلا قد تجد مريضا مصابا بشلل هستيرى في اليد فيكون لظهور هذا العرض معنى معين فاليد عضو قد يستخدم في الاعتداء والمريض قد يكون راغبا بدون علمه "أى لا شعوريا" في الاعتداء على شخص عزيز عليه فتكون نتيجة هذا الموقف المتناقض أن تُشَلَّ يده وفي هذه الفكرة نجد البذرة الأولى لمذهب التحليل النفسى .

أما الخطوة التي تعتبر مبدأ حقيقيا لهذا العلم فقد أتت عن طريق "بروير"^(١) وهو طبيب من فينا درس على "شاركوه". ففي حوالي سنة ١٨٨٠ لاحظ أثناء علاجه لحالة من حالات الهستيريا . أن أعراض المرض كما سبق أن بينا لها معانٍ معينة فهي تشير إلى حوادث قديمة مدفونة . ولكنه اكتشف أيضا أنه إذا نَوَّم المريض تنويما مغناطيسيا أمكنه عن طريق الإيحاء المناسب . أن يعيد إلى ذاكرته ما سبق أن فقدته من هذه الحوادث و"الذكريات".

وقد لاحظ أن حالة المريض كانت تتحسن كثيرا بعد هذا التذكر وكان يتماثل للشفاء. وكان هذا الكشف الأخير أهم كشوفه ، وهو يعتبر البدء الحقيقي لتاريخ مذهب التحليل النفسي ، وقد استقر "بروير" في استخدام طريقته في العلاج حتى انضم إليه "سيجمند فرويد"^(٢) وهو طبيب نفساني آخر درس على "شاركوه" أيضا بعض الوقت في باريس ثم عاد إلى فينا وعمل مع "بروير" ، وقد حمل هذا الأخير على نشر نتائج كشوفه فظهر بحث مشترك لهما في سنة ١٨٩٣ ، وفي سنة ١٨٩٥ ظهر أول كتاب في تاريخ التحليل النفسي باسم "دراسات في الهستيريا".

وقد استقل "فرويد" بعد ذلك بالعمل وظل طوال أربعين سنة أو أكثر يجمع نتائج دراسته وعلاجه وينشرها في كتب ، ويلقيها في محاضرات ، وجمع حوله نفرا من التلاميذ انتشر عن طريقهم مذهبه في التحليل النفسي في ممالك مختلفة أهمها ألمانيا وإنجلترا وأمريكا ، وقد صدر عن "فرويد" وتلاميذه مئات المؤلفات والنشرات والمجلات ومن تلاميذه من ابتدع نظريات جديدة في علم النفس يمكن أن تعتبر مشتقة من (التحليل النفسي) ولكنها انحرفت عن بعض أسسه انحرافا كان كافيا لأن يجعل منها مدارس جديدة قائمة بذاتها ، منها مدرسة "يونيغ"^(٣) صاحب علم النفس التحليلي ، ومنها مدرسة "أدلر"^(٤) صاحب علم النفس الفردي ، وقد جعل "فرويد" من اللاشعور أساسا للتفسير النفسي . ويتميز اللاشعور عن الشعور

Joseph Breuer (١)

Sigmund Freud (٢)

C. G. Jung (٣)

Alfred Adler (٤)

ميزات عدة، فهو لا شخصي^(١) أى أنه لا يحمل طابع الذاتية الذى يحمله الشعور فأنا اذ أتكلم عن رغبتى فى تناول الطعام إنما أشعر بأن الرغبة منبعثة عن ذاتى، فالشعور ذاتى ولكن اللاشعور خلافه فى ذلك . فعند ما نتحدث عن آثاره إنما نتحدث عن شيء غريب عنا فنقول إن " شيئا " جعلنى أنسى أو جعلنى أهفو أو جعلنى أخطيء . واصل فى نسبة ألوان من السلوك الغريب للإنسان الى الشياطين ومن اليهم من الكائنات الخارجية ما يؤكد هذا المعنى .

واللاشعور غير شخصي^(٢) بمعنى أن ما يصدر عنه لا تحدده أية قوانين خلقية ولا اجتماعية من أى نوع، فالعالم الخلق والاجتماع لا ينفذ الى غياض اللاشعور، ولا نستطيع أن نقول إن اللاشعور ضد الخلق لأن ذلك يتضمن أن هناك قيمة خلقية ولو معكوسة . ولكن الواقع أن اللاشعور منفصل عن عالم الخلق انفصالا تاما .

وهو أيضا أوجه الخلاف بين الأضواء والأظلام . أوجه التشابه ، ومن هنا أتت خاصية الرمز^(٣) فهو رمز للشيء بما يشبهه ولو شبرا نارضا، بخلاف ما قد يكون بينهما من أوجه الخلاف . فقد يكون الاتفاق فى اللون بين شيئين سببا فى الاستجابة لهما كما لو كانا شيئا واحدا بالرغم من بعد الشقة بينهما، فالظلام والرجل الأسود قد يستجيب لهما اللاشعور استجابة واحدة .

وأخيرا فإن اللاشعور لا يدرك الفواصل الزمنية، ويرى أن الماضى والحاضر شيء واحد، ولعل خير مثال لذلك ما يحدث فى الأحلام من استعادة الماضى كما لو كان حاضرا .

واللاشعور هو المحبأ الذى نلقى فيه بكل ما نرغبنا ويروعنا من رغبات وأفكار ونقفل الباب دون هذه الرغبات والأفكار ونحكم الأقفال ، ثم نقيم العوائق والسدود الإضافية حتى نأمن تسربها الى ذاكرتنا ، فتصبح نسبيا منسيا . ولكن هذه الرغبات والأفكار هى رغباتنا نحن وأفكارنا نحن ، هى إذن وثيقة الصلة بحياتنا النفسية ولا بد من أننا نمر فى حياتنا اليومية مرارا بما يشبهها، وهذه الحوادث المشابهة تجد صدئ عميقا فى نفوسنا، وفوق ذلك فإن هذه الرغبات والأفكار لا تقبع فى مخبئها قانعة، وإنما تتصايح وتلح وتثور، وتحاول أن تصل من

(٢) Amoral

(١) Impersonal

(٣) Symbolism

مجاهل النسيان إلى نور الذاكرة . ولكن أصواتها لا تصل إلينا في الغالب وإذا وصلت فإننا تتجاهلها ونتماعى عنها ، فنسمعها كما لو كانت آتية من الخارج أو نراها كما لو كانت غريبة عنا ، ونتمادى في هذا التجاهل والتعمى ما وسعنا التمدى .

وقبل أن نختم هذا الباب يجب أن ننبه القارئ إلى أن هذا التقسيم الطوبوغرافى للعقل إلى شعور وتحت شعور ولا شعور ليس إلا تقسيميا وظيفيا يشبه تقسيمه إلى تذكر وتفكير وانفعال في حياتنا الشعورية ، فكما أن التذكر خاصة من خصائص العقل فكذلك النسيان ، وكما أن التذكر له شروطه وأنواعه فكذلك النسيان ، وكما أننا نفسر التذكر على أساس قابلية العقل للتأثر واختارانه لهذه الآثار فيه فكذلك نفسر النسيان العادى على أساس قابلية العقل لاستبعاد الآثار المخترنة واسترجاعها تحت شروط خاصة ، فكذلك نفسر النسيان التام ” بالتحديد الذى أوردناه ” على أساس قابلية جديدة للعقل على نوع من الاختزان البعيد الغور بعدا يجعل هذا المخزون بعيدا عن متناول الشعور ، بل يقيم العقبات في سبيل ظهوره ، ومع ذلك فالدلائل تدل على أنه موجود لم يعدم بتاتا .

هذه هي النظرة العامة للأشعور فهو كالشعور مجرد وسط يقوم بصفات ووظائف ” نفسية ” معينة .